الفصل السابع عشر:

المماليك وفلسطين

راندا أبو الدهب

نظرة عامة:

أدت وفاة صلاح الدين الأيوبي إلى إحداث فزع كبير في العالم الإسلامي، لم يستطع أي من أحفاده ملؤه، فقد قام أبناء صلاح الدين، وأقاربه، باقتسام دولته، وتفتيتها وأصبحت حمص وحلب، وحماة، ودمشق، وبعلبك، والكرك، وبصرى مجرد إمارات أيوبية. يحكمها أبناء، البيت الأيوبي، فضلاً عن مركز الدولة في مصر.

بسبب هذا التفتيت، والخلافات بين أبناء، البيت الأيوبي، استطاع الفرنجة انتزاع مزيد من الأراضي العربية بهدف توسيع رقعة ممالكهم، فاستولوا على معظم الساحل الشمالي، من عسقلان جنوبًا، إلى طرابلس شمالاً ناهيك عن بعض المناطق في الداخل، ومنها صفد. وازدادت رقعة ممالك الفرنجة اتساعًا، بعد أن منح الملك الكامل الأيوبي صديقه الحميم، الامبراطور فردريك الثاني، بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، عام ٦٢٦هـ/ 1229 م، بموجب " اتفاقية يافا "، على أن يبقى الحرم القدسي الشريف في أيدي المسلمين، دون تحصين المدينة [١].

في (642 هـ /1249 م) استطاع الصالح نجم الدين أيوب، استرداد بيت المقدس، ما أثار الغرب، ودفعه لإعداد حملة سابعة، هدفها انتزاع

فلسطين وإذا كان تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين عام 583 هـ/ 1187 م، والملك الصالح، فيما بعد، فالأولى الهجوم على مصر، التي هي مفتاح كل خطوات التحرير السابقة. وبالفعل، توجهت حملة الفرنجة السابعة، بقيادة ملك فرنسا، لويس التاسع، نحو مصر، واحتلال دمياط، في 647 / هـ 1249م، في الوقت الذي كان فيه الملك الصالح على فراش المرض، فحُمل إلى قلعة المنصورة، لمواصلة إعداد الجيش، وتنظيمه، ولم يكد لويس يبدأ في الزحف نحو القاهرة، حتى توفى الملك الصالح، في 23 نوفمبر/ تشرين الثاني١٢٤٩م) ، إلا أن أرملته شجرة الدر أخفت الخبر حتى لا يفتَّ في عضد الجند، وأرسلت في طلب توران شاه، ابن الملك الصالح، من حصن كيفا بالموصل. في الوقت نفسه استمرت الاستعدادات العسكرية قائمة[٢]. وفي المنصورة التقى الفرنجة بالجيش الأيوبي، وعلى رأسه مماليك الملك الصالح، بقيادة بيبرس البندقداري، وعند فارسكور، بالتحديد، حُسمت المعركة لصالح الجيش الأيوبي، واقتيد لويس التاسع، وكبار رجال حملته، أسيرًا، وسُجن في دار بن لقمان بالمنصورة. في الوقت نفسه لم يحسن توران شاه لمماليك أبيه، وأرملته شجرة الدر، فتآمر عليه الجميع، وقتلوه، في مايو/ أيار 1250 م، وتسلمت الأخيرة السلطة، فكانت أول امرأة تتولى السلطة في الإسلام، واستمرت في الحكم ثمانين يومًا أُفرج خلالها عن لويس التا سع، مقابل فدية، حيث لم يقر الخليفة المستعصم بالله العبا سي، في بغداد، أن تتولى حكم المسلمين امرأة، فاختارت شجرة الدر الزواج من عز الدين أيبك التركماني كبير أمراء، المماليك، وتنازلت عن الحكم له، في يوليو/ تموز

1250 م[٣].

بوصول أيبك التركماني إلى سدة السلطنة، انتهت الدولة الأيوبية، وولدة الدولة المملوكية، وإن كان بعض المؤرخين يعتبرون وصول شجرة الدر للحكم، بداية تأسيس تلك الدولة، ومنهم المقريزي، الذي قال عنها: أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك [٤].

بعد هزيمة حملته، لم يتجه لويس التاسع إلى فرنسا، بل اتجه نحو عكا، في مايو/ أيار ١٢٥٠م، وحاول أن يستغل ما نشب من خلاف بين الأيوبيين في الشام، والمماليك في مصر، لتعديل شروط المعاهدة المعقودة مع المماليك. وبالفعل، استجاب عز الدين أيبك لآمال لويس وحرص على استرضائه ووافق على إطلاق سراح كبار قواد الفرنجة من الأسرى، والتنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس، فيما أرسل له أمير حلب، الناصر يوسف، سفارة، وعرض عليه التحالف معه، ضد المعز أيبك، مقابل منح لويس بيت المقدس غير أنه خاف على أرواح الأسرى لدى أيبك، فوافق على عرضه، وسانده، حين تنازع غزة مع الناصر يوسف، في فبراير/ شباط 1251 م، وكاد المماليك أن يضحوا ببيت المقدس، لولا تدخُّل الخليفة العباسي، للصلح بين الناصر وأيبك. وفي إبريل/ نيسان 1253م، عُقد بينهما اتفاق على أن تكون مصر، وفلسطين حتى نهر الأردن، بما في ذلك غزة، والقدس والساحل للمماليك، وبقية الشام للأيوبيين[٥].

في 655 / 1257 م، خلا المسرح السياسي من المعز أيبك، وشجرة الدر، واعتلى عرش الدولة علي بن أيبك، وسيف الدين قطز نائبًا ووصيًا

عليه، لكن الأخير سرعان ما استقل بالحكم، وتخلَّص من الأول في إبريل/ نيسان 1259 م، سبق ذلك بقليل أن زحف التتار بقيادة هولاكو، من أذربيجان صوب بلاد الشام، ونجحوا في إسقاط حاضرة الخلافة العباسية بغداد، في فبراير/ شباط 1258 م، ثم اندفعوا، واستولوا على ديار بكر، وآمد، فأسرع الناصر يوسف، أمير حلب، إلى إعلان خضوعه لهم، وأرسل ابنه بذلك إلى هولاكو، محمَّلاً بالهدايا إلا أن هولاكو خيَّب أمله، واقتحم حلب، في 658 هـ/ 1260 م، وهرب الناصر إلى غزة [٦]. ثم استولى التتار على دمشق دون قتال، في مارس/ آذار 1260 م، ما سهَّل لهم الطريق نحو مصر، من خلال فلسطين [٧].

أعد السلطان سيف الدين قطز الجيش، لمحاربة التتار، وبعد استعراض الجيش في شوارع القاهرة، كَّلف القائد ركن الدين بيبرس البندقداري بالتقدُّم على رأس قوات من الجيش نحو غزة، التي احتلها التتار، بقيادة

" بيدرا "، وفي وثبة خاطفة تمكَّن بيبرس من اقتحام المدينة، وطرد طلائع التتار منها، وتعقبهم، حتى شاطئ نهر العاصي. في الوقت نفسه كان قطز قد اتفق مع الفرنجة في عكا على السماح لقواته بالعبور عبر الأراضي الساحلية، التي يسيطرون عليها، فقد رأى الفرنجة في القتال بين سلطان المماليك والتتار فرصة للإنتقام منهم عما أحدثوه من تخريب في " صيدا "، وكذلك لتخوف الفرنجة من نوايا التتار التوسعية العدوانية [٨].

اتجه الجيش المملوكي من مصر إلى طبريا شمالاً، ثم عين جا لوت،

وبالقرب من بيسان، دارت المعركة الفاصلة مع التتار، في 6 سبتمبر / أيلول 1260 م، فكان بينهما على بيسان واقعة أعظم من الأولى، وقتل من عسكر التتار نحو النصف، وغنم منهم عسكر مصر غنيمة عظيمة.. "[٩].

قلبت معركة عين جالوت موازين القوى في بلاد الشام، رأسًا على عقب، فقد تخلَّص المماليك من بقايا الأيوبيين الذين تعاونوا مع هولاكو، من أمثال الملك السعيد حسن، أمير بانياس، يوم المعركة، فقُتل جزاءً له[١٠]، ولم يبق في مواجهة المماليك سوى الفرنجة، الذين بدأ نجمهم في الأفول، سواء في أنطاكية، أو طرابلس، وعكا، خاصةً بعد فشل حملاتهم المتكررة، فبدأ المماليك في إعادة توحيد مصر والشام، من جديد، مثلما فعل نور الدين زنكي، وصلاح الدين، من قبل.

في أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٦٠م، تخلَّص بيبرس من السلطان قطز، واستولى على الحكم، وبعد أن بسط سلطانه على مصر والشام، تطلع بيبرس إلى التخلُّص من بقايا الفرنجة هناك، فبدأ بمحاصرة عكا، في إبريل/ نيسان 1263 م، لكنه لم يستطع الاستيلاء، لذلك عمد، بعد ذلك، إلى جعل حملاته ضد الفرنجة بشكل هجمات متقطِّعة، يتمكن خلالها من صد بقايا التتار، الذين تكررت غاراتهم على بلاد الشام، طوال العصر المملوكي[١١].

في العام التالي، علم بيبرس بتحرُّك المغول نحو بلاد الشام، فسار على رأس جيشه حتى غزة، ثم يافا، وعندما صدَّت قواته التي في شمال الشام هذه الغارة، غيّر خططه، فزحف في اتجاه قيسارية، أهم المواقع

لدى الفرنجة وأخصَّها على الساحل، فيما بين عكا وغزة، وبعد أن حاصرها، وفر من كان فيها نحو يافا، اقتحم بيبرس وأمر بهدم قلعتها، وفي الوقت نفسه استولى على عتليت، ثم حاصر أرسوف، أربعين يوماً، ثم اقتحم حصنها، وحررها، في إبريل/ نيسان 1265 م. ولم يكن العرب الفلسطينيون

بعيدين عن كل هذا، فشاركوا الجيش في اقتحام الأسوار، والقتال، حتى أن "... النساء، الصالحات (كن) يسقين الماء، في وسط القتال، ويجررن في المجانيق... " [١٢].

أما صفد، فقد زحف بيبرس نحوها، في 1266 م، وحاصرها مدة ثلاثة أسابيع، وعزلها، ومنع وصول النجدات إليها. وبعد سقوطها، هدم قلعتها، وأعاد بناءها في العام التالي، فيما سقطت يافا في يد المماليك، في العام 1268 م، ثم إمارة أنطاكية، في العام نفسه.

ولم يبق من إمارات الفرنجة بالشام إلا طرابلس، وعكا [١٣]، التي زحف نحوها السلطان قلا وون، وحاصرها حتى استولى عليها، في إبريل/ نيسان 1289 م، أما عكا فقد شرع قلاوون في الاستعداد لحصارها، إلا أن الموت عاجله، في ١٢٩٠ ، فأكمل ابنه، الأشرف خليل، المسيرة، فاستنفر قوات الشام، حيث خرج نائب دمشق، الأمير حسام الدين لاجين، على رأس جيشه، وكذلك أمير حماة، الملك المظفَّر، وغيرهم، فضلاً عن الأشرف خليل، واجتمعوا عند أبواب عكا، وحاصروها، وضربوها، بالمنجنيق، وسرعان ما سقطت عكا، في 18 مايو/ آيار ١٢٩١ م، بعد أن ظلَّت في يد الفرنجة قرن من الزمان [١٤].

الحياة الاقتصادية:

رغم افتقاد فلسطين للكثير من الموارد الطبيعية، اللازمة لقيام بعض أوجه النشاط الاقتصادي، فإن ثمة ازدهار ونشاط اقتصادي ملحوظ، عاشته فلسطين في عصر سلاطين المماليك، نظرًا لوقوعها على طريق القوافل التجارية، بين شمال بلاد الشام ومصر، أو بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، إضافة إلى تنوع إنتاجها الزراعي، الذي قامت عليه بعض الصناعات، فضلاً عن دور الحج في هذا الازدهار، كأحد أهم الموارد الاقتصادية لأهل فلسطين، والدولة المملوكية نفسها.

أولاً: الزراعة:

تراوحت معوقات الزراعة في فلسطين بين قلة مواردها المائية، وأرضها القابلة للزراعة، نظراً لتنوعها، فثمة أراضٍ صخرية، وأُخرى رملية، منخفضة، شبه صحراوية، وثالثة صحراوية، إلا أن هناك أراضٍ جيدة الخصوبة، ذات تربة طينية، خاصة في السهل الساحلي، وما حول المدن الكبرى، كالقدس، وصفد، وغيرها، أما المياه فقد تغلَّب السكان على مشكلتها، من خلال اللجوء، إلى الزراعة بالاعتماد على مياه الآبار، والبرك، والعيون، وأحياناً الأمطار.

قُسم الإنتاج الزراعي إلى قسمين، أولهما الأشجار المثمرة، وثانيهما ما تغله الأرض من حاصلات.

يأتي الزيتون على رأس الأشجار المثمرة، فلم تخلُ مدن وقرى فلسطين منه، إلا أنه كثر في المرتفعات الجبلية الغربية المحاذية لساحل البحر، خاصة نابلس " وهي مدينة عظيمة، وكثيرة الأشجار، مطردة

الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتونًا، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق " [١٥]. كما انتشر الزيتون في القدس، على سفوحها، وحوافها، وعلى جانبي التلال الصخرية، الممتدة حول أطراف المدينة، والقرى المجاورة لها، وعلى طول الوادي، الممتد ما بين القدس والخليل، وفي المكان نفسه انتشرت أشجار الكروم، والفواكه من التين، والموز، والجوز، والتوت، والتفاح، فضلاً عن الحمضيات وأشجار البلح [١٦] التي كثرت زراعتها في نيابة صفد، أيضًا، بجوار أشجار الزيتون الكثيفة في الجليل، والساحل، أما القطن فقد زُرع على الطريق من يافا إلى القدس، وفي مرج بن عامر، وساحل عكا، كما حظي قطن صفد بشهرة واسعة، لجودته، كذلك أرز صفد الذي صُدِّر إلى دمشق، وزرع في سهل الحولة، وفي المناطق الواقعة بينه وبين طبريا، وبالقرب من قناة صور. أما قصب السكر فقد اشتهرت به عكا، منذ القدم، حيث زُرع في ساحلها، وأنتج منه السكر [١٧]، كما زرع في أراضي الغور، وفي أريحا، التي تميَّزت، أيضًا، بزراعة القلقاس، الذي لا ينمو إلا في المناطق الحارة[١٨]. ونظرًا لخصوبة التربة في بعض القرى المحيطة بالقدس، زُرع القمح بكثرة، لأنه كان يزرع، ويحصد، دون عناء، فضلاً عن عدم احتياجه لكثير من المياه، وقلت زراعته في الوادي الممتد من بيت المقدس إلى الخليل، مع هذا لم تفِ كمية القمح المزروعة حاجة السكان، فكان السلاطين المماليك ينعمون على القدس والخليل، مثلاً بكميات كبيرة من القمح [١٩].

أما الشعير، فكانت زراعته شائعة، خاصة في الأراضي المرتفعة،

على التلال بالقدس، حتى أن القمح والشعير كانا أهم محاصيل نيابة صفد، فضلاً عن بعض البقوليات، والخضروات، من فول، وبصل [٢٠]، إضافة إلى ما تميّزت به فلسطين من زراعة الأعشاب الطبيعية.

بما أن النظام السيامي قائم على الإقطاع، فقد كانت الأرض تُزرع بنظام المقاسمة، أي أن يتولى أحد الأشخاص استئجار الأرض من " مقطعها، ويقوم هو بالإنفاق عليها، وشراء، كل ما يلزمها، ثم يتقاسم ثمن المحصول، هو ومن قام بزراعتها " [٢١].

ثانيًا: الصناعة:

اشتهرت المدن الفلسطينية بقيام صناعات عدة، تماشت مع حاصلاتها الزراعية، وأشجارها، فضلاً عن مكانة بعض مدنها الدينية، خاصة بيت المقدس.

فقد اشتهرت نابلس بصناعة عصر الزيتون، واستخراج الزيت منه، فضلاً عن الصابون، وصناعة الورق، وصدرت معظم هذه الصناعات إلى دمشق. أما عكا فقد عرفت صناعة السكر من القصب، منذ القدم، فيما قامت في صفد صناعة استخراج الزيوت، والدبس، وماء الورد، وحفظ بعض الفواكه، وصناعة المنسوجات القطنية والصوفية، والكتانية خاصة في الجليل، كما أن سهل الحولة كان ينتج الحلفاء بكثرة، وكانت تستخدم في صناعة الحصر [٢٢]. أما مدينة بيت المقدس، فقد كانت مركزًا صناعيًا مهمًا، بالإضافة إلى استخراج الزيوت، إذ عرفت المدينة بصناعة الصابون الذي كان يصدر إلى المدن المجاورة، مثل يافا، ومنها إلى البلاد المجاورة، فضلاً عن بعض الصناعات التي ارتبطت بموسم الحج، ومنها صناعة

الشمع، والحفر على خشب الزيتون وقد تم صنع بعض أدوات الكتابة، ولعب الأطفال منه، إضافة إلى الهدايا التذكارية، التي يقبل عليها الحجاج الغربيين، فضلاً عن صناعة المنسوجات القطنية والحريرية، والمشغولات الفضية والذهبية. كما أن بعض أهل المدينة اشتغلوا بصناعة النبيذ، والسلال من سعف النخيل(٢٣).

ثالثًا: التجارة:

نظرًا لاستتباب الأمن والاستقرار، في عهد دولة سلاطين المماليك، فقد ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية، في فلسطين، إضافة إلى أنها تمتعت بموانئ عدة على الساحل، وإن تأثر هذا الازدهار، في أواخر العصر المملوكي لحرص السلاطين على فرض الكثير من الضرائب والأتاوات على الصنَّاع والتجار، فضلاً عن سياسة احتكار السلاطين والأمراء المماليك لبعض السلع، ناهيك عما تعرضت له البلاد، أحياناً، من أوبئة، ومجاعات، وكوارث طبيعية، كالزلازل.

أدى ازدهار الزراعة والصناعة في فلسطين، إلى رواج تجاري شهدته معظم المدن، خاصة الساحلية، فالمقادسة، تركزت تجارتهم في الحاصلات الزراعية من قمح، وشعيره وزيتون، وغيره، كما كانوا يستوردون بعض السلع، لبيعها في مدينتهم، خلال موسم الحج، مثل الأسماك من يافا، والأقمشة الحريرية من دمشق، كما تاجر بعضهم في الأخشاب، والعقاقير الطبية، والتوابل. أما البن، والأرز، والفول، والعدس، فكان يأتي إلى فلسطين من مصر، ودمشق، عبر طريق القوافل التجارية، الذي ربط بين مصر وفلسطين، عبر سيناء، مروراً بغزة،

والخليل، وبيت لحم [٢٤]، فضلاً عن شهرة بعض المدن الفلسطينية التجارية، مثل الرملة، العامرة بالكثير من الأسواق، أما عكا فقد كانت نشطة، تجاريًا، حتى وهي تحت احتلال الفرنجة، إلا أنه تم هدمها، بعد تحريرها، وتوقف نشاطها البحري، والتجاري الخارجي، على أنه يبدو أن عكا استردت نشاطها، وغدت ميناء، نيابة صفد، التي نشطت تجارتها مع دمشق[٢٥]، كما تم استيراد اللؤلؤ من الخليج العربي، عبر مينائي يافا، وطرابلس[٢٦].

أما الأسواق، فقد انتشرت في مختلف المدن، فضلاً عن تنوُّع هذه الأسواق، مثل سوق التوابل، وسوق العطارين، في القدس، وأسواق القطانين، والبصالين، والبقالين، والسراجية في الرملة، وفي الخليل سوق الزياتين، والحصرية.

اعتبر الخان من أهم المؤسسات التجارية في العصر المملوكي، سواء، داخل المدن، أو على طريق القوافل، وهو عبارة عن نزل، أو فندق، لنزول التجار، أو الحجاج، خلال رحلتهم، كما احتوى الخان على مخازن لحفظ بضائع التجار ودوابهم، ومن أشهر خانات فلسطين التي أُقيمت خارج المدن: خان المنية، عند بحيرة طبريا، والخان الأحمر، بين المقدس، وأريحا وخان يونس، جنوبي مدينة غزة، فيما أهم خانات القدس، تمثلت في: خان الفحم، وخان الجاولي، وخان القاضي فخر الدين بن نسيبة، وخان الزيت، وعلى بُعد ميلين من سور القدس، يقع خان بني سعد، وخان الظاهر بيبرس، الذي يعتبر من أقدم المنشآت المملوكية في فلسطين [٢٧].

شكل الحج موردًا مالياً مهماً، سواء، لخزينة الدولة، لما يدفعه الحاج من رسوم دخول فلسطين، أو رسوم زيارة لكل الأماكن المقدسة، منذ أن تطأ قدميه ميناء، يافا، وحتى عودته إليها، بعد انتهاء موسم الحج، أو لأبناء، بيت المقدس، وخاصة التجار، وما يقومون به من معاملات تجارية مع الحجيج. كما أن الحج لم يقتصر على الحجاج المسيحيين، بل المسلمين، أيضاً، الذي كان يحج بعضهم إلى المسجد الأقصى، كجزء، من فريضة الحج إلى مكة، والمدينة المنورة، وكان الحجاج يأتون، في الغالب، عن طريق البحر، خاصة مينائي عكا، ويافا، أو من خلال الطريق البري، عبر مصر ثم غزة، أو من خلال ميناء، دمياط [٢٨].

عند استيلاء المماليك على فلسطين، عام 1250م، كانت الدراهم الكاملية (نسبة إلى الملك الكامل ناصر الدين الأيوبي)، الأكثر رواجاً في مصر، وبعض أنحاء بلاد الشام، منذ أن أمر بضربها عام ١٢٢٦م، وظلت، أثناء، حكم المماليك، وانتشرت معها الدراهم الظاهرية، التي سكها الظاهر بيبرس. ورغم أن الدينار والدرهم، والفلس كانت الوحدات النقدية الأساسية في مصر والشام، إلا أن قيمة كل منهما اختلفت بين منطقة وأُخرى، أو عام وآخر، تبعاً لما تعرضت له هذه العملات من غش، الذي ارتبط، في معظم الأحيان، بالأزمات الاقتصادية، التي مرت بها الدولة المملوكية [٢٩].

كانت الضرائب من أهم مصادر الدخل بالنسبة للدولة، لذلك تنوعت الضرائب بين المكوس، والرسوم، والجوالي، والمواريث الحشرية، فقد فرض المماليك الضرائب على السلع والمشتريات، والأسواق والتجار،

ناهيك عن الرسوم التي فُرضت على المسابك، ودار الوكالة (الخانات)، ونصف متحصل كنيسة القيامة، أما الجوالي، أو الجزية، فتُفرض على أهل الذمة من يهود، ومسيحيين، البالغين دون النساء، والأطفال والرهبان، فيما المواريث الحشرية، المال الذي تركه من لا وريث له أو له وارث لا يستحق كل الميراث، فيكون ذلك من موارد الدولة، التي تضاف إلى بيت المال [٣٠]. أما في أوقات الأزمات والحروب، فكانت الدولة تفرض المزيد من الضرائب لتمويل الحملات العسكرية، بل إنها لجأت أحيانًا إلى مصادرة ممتلكات الشعب، مثلما حدث، عام 890 هـ / 1485م، عندما توترت العلاقات بين الدولة المملوكية والعثمانية.

obeikandl.com

نظم الحكم والإدارة:

على غرار براعة المماليك في فنون الحرب والقتال، برعوا كذلك في التنظيم الإداري لدولتهم، فقد قُسمت بلاد الشام إلى نيابات (*)، أما فلسطين فقد قُسمت إلى ثلاث نيابات، أولهما نيابة صفد، وقد تأسست بعد تحريرها من يد الفرنجة، في عهد الظاهر بيبرس، ووصفها ابن الظاهري، قائلاً: " أما المملكة الصفدية فإنها مملكة متسعة، قيل إنها تشتمل على ألف ومائتي قرية، ولها عدة معاملات، وأعظم مدنها صفد، هي مدينة متفرقة.. وبها جوامع ومدارس.. وقلعة حصينة.. و(عكا) وهي، الآن، مينا المملكة الصفدية وكفر كنة " (٣١). ورغم وصف بن الظاهري لنيابة صفد، فإنه لم يُبين حدودها.

بما أن نيابة صفد، أول نيابة أُقيمت في فلسطين، على غرار النيابات السابقة في بلاد الشام، في هيكلها الإداري، وإن طغى على صفد الطابع العسكري، فإن باقي النيابات الفلسطينية لم تختلف عنها في البناء الإداري باستثناء، نيابة القدس التي زاد بها بعض الوظائف الدينية، لذلك يمكن إيجاز الجهاز الإداري في مختلف النيابات في الوظائف والدواوين التالية(٣٢):

١ - النائب: يتم تعيينه من قِبل السطان، وممثِلاً عنه، ويكون مسؤولاً عن تصريف أمور النيابة كافة، وصلاحياته شبه مطلقة.

٢ - الوالي: هو المسؤول عن الأمن والإدارة داخل المدينة الواحدة من النيابة، وغالباً ما يكون الوالي من ذوي المراتب العسكرية الأقل من النائب.

٣ - والي القلعة: وهو تابع للسلطان، مباشرة، مسؤوليته صيانة القلعة، ومراقبة النائب خشية تمرده.

٤ - الأتابك: قائد عسكر السلطان.

٥ - الحاجب: نائب السلطان، في حالة غياب النائب، وإلى الحاجب ترد المراسيم السلطانية، ويتولى تنفيذها، حتى لو كانت أمراً بالقبض على النائب؛ وللحاجب مساعدان.

٦ - الخزندار: المسؤول عن خزائن القلعة، ومحتوياتها، من سلاح وعتاد.

٧ - ناظر النظّار: مهمته الإشراف على الدواوين، وكانت مهامه استشارية، أكثر منها تنفيذية، فيما تمثّلت الإدارة المدنية في ديوان الإنشاء، ويرأسه " كاتب السر "، ومن موظفيه الموقّعون، أو كتّاب الدرج، ولعل المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي أشهر من تولوا هذا المنصب.

أما البريده فقد ارتبط بديوان الإنشاء، ولم يكن البريد يستغرق من دمشق إلى القاهرة سوى أربعة أيام، اعتماداً على الفرسان، والحمام الزاجل، والشارات الضوئية، فكانت صفد نقطة الوصل بين القاهرة ودمشق، من خلال البريد.

إضافة إلى ذلك، هناك ديوان الجيش، الذي اهتم بشؤون العسكر المحلية، وإقطاعاتهم، وتولاه ناظر الجيش.

أما الإدارة الدينية فشملت القضاء، والفتوى، والحسبة، والأوقاف،

obeikandi.com

والمساجد، والمدارس الدينية، حيث اعترفت الدولة بأربعة مذاهب إسلامية، هي: الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي. لذلك تم تعيين أربعة قضاة، للحكم بين الناس، حسب المذاهب الأربعة، أما الإفتاء فقد كان لبعض النيابات مفتيين، واحدًا للشافعية، والآخر للأحناف، بالإضافة إلى أن بعض العلماء تصدوا للإفتاء، دون تكليف رسمي. أما المحتسب فقد تولى الإشراف على النظام العام، والأسواق، والآداب العامة، وتطبيق الشريعة.

أُنشئت نيابة صفد بهدف التصدي لمملكة عكا الفرنجية، وكان المسؤول عنها أعلى رتبة في الجيش المملوكي، كما شارك المتطوعون من أهل صفد الجند في الدفاع عنها، ضد الفرنجة، والمغول، حتى تم دحرهم نهائياً، ثم المشاركة في صد العثمانيين [٣٣]. كما حوى التاريخ السياسي لنيابة صفد، المشاركة في بعض حركات التمرُّد والعصيان، التي قام بها بعض نواب الشام، فيما أحياناً أُخرى شاركت السلطة في قمع هذه الحركات، ومنها: عندما قام نائب دمشق وحلب طشتمر بحركة عصيان احتجاجاً على استبداد أتابك العسكر في القاهرة اينبك، وفي تلك الأثناء صدر أمر بعزل نائب صفد تمر باي الدمرداشي، فرفض إطاعة الأمر وانضم إلى طشتمر، وانتهت الحركة بنجاح، وطرد اينبك من منصبه، وصار طشتمر أتابكاً للعسكر في القاهرة [٣٤].

" أما المملكة الغزاوية، بها مدينة غزة، وهي مدينة حسنة بأرض مستوية، وهي كثيرة الفواكه وفيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة.. وتسمى دهليز الملك.. وأما مدينة الرملة فليست مملكة وإنما هي

إقليم تشتمل على قرى عديدة.. [٣٥]. ومن أهم الأسباب التي دعت السلطة إلى جعل غزة نيابة مستقلة، ضخامة حجم القبائل البدوية، كثيرة الثورة فيها، ناهيك عن تطلُّع السلطة إلى إضعاف مكانة نائب دمشق، بتجريده من بعض أقاليم نيابته، نظراً لتكرار تمرده على السلطة، بالإضافة إلى أن غزة كانت محطة إنذار مبكر بالنسبة لمصر، واتخذها سلاطين المماليك، وقبلهم الأيوبيين، قاعدة أولى لحملاتهم في الشام ضد الغزاة، واعتبرت غزة نيابة مستقلة في عهد المنصور قلاوون، ولكن تأكدت استقلاليتها هذه في عهد ابنه الناصر محمد بن قلاوون، عام 711 هـ/ ١٣١١م [٣٦].

أما عن تاريخ النيابة، فقد تمحور حول زيارات السلاطين المماليك لها، ومشاركتها في حركات التمرد، أو قمعها.

اعتبر الظاهر بيبرس أول السلاطين الذين زاروا غزة، قبل سلطنته، أو بعدها، وهي كثيرة، فقد لجأ اليها عام 652 هـ/ 1254 م عندما قتل سيده الأمير فخر الدين أقطاي، وبعد سلطنته تردد عليها خلال قيامه بتثبيت أركان مُلكه في بلاد الشام، ومحاربته لبقايا الأيوبيين، والفرنجة، والمغول، وذلك خلال الأعوام التالية 659 هـ / 1261 م، و 661 هـ/ 1267 م، وغيرها. أما المنصور قلاوون فقد زارها قبل توليه الحكم، وبعده، وبالتحديد عام 685 هـ/ ١٢٨٦م، حينما هدد المغول بلاد الشام. فيما كانت أهم حركات التمرد، التي كان لغزة الدور المحوري فيها، عندما نازع نائب دمشق ستقر الأشقر، المنصور قلاوون، عرش السلطنة، فأرسل الأول عساكره إلى غزة لمنع قوات قلاوون من الزحف إلى الشام، ودارت معركة في المدينة انتصرت فيها قوات قلاوون، بسبب

عجز الأشقر عن الاحتفاظ بغزة[٣٧].

من أهم المنشآت في غزة، مسجد الأمير علم الدين سنجر الجاولي، ومسجد الصوفي أحمد بن عثمان بن عبد الله الحنبلي (ت 805 هـ/ 1402 م)، بالإضافة إلى بيمارستان الجاولي، الذي ظل حتى حملة نابليون بونابرت على الشام. وهناك زوايا ومدارس عدة، فضلاً عن عدد من الخانات أشهرها خان يونس، الذي بناه الأمير يونس النوروزي، أحد كبار المماليك في عهد السلطان برقوق، وكانت تجبى فيه الضرائب من الحجاج والمسافرين [٣٨].

في عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣م، جعل السلطان برقوق من القدس نيابة مستقلة، ولم يختلف الجهاز الإداري فيها عن باقي النيابات، باستثناء، بعض الوظائف الدينية، نظرًا لمكانة المدينة الدينية، كما أن نائب القدمس، جمع في الغالب بين وظيفته العسكرية، وأُخرى الدينية، وهي ناظر الحرمين الشريفين، القدس والخليل، والإشراف عليهما، وأوقافهما، فيما مشيخة المدرسة الصلاحية تأتي في المرتبة التالية، وهي مدرسة أنشأها صلاح الدين بعد تحرير المدينة في 583 هـ/ 1187 م، وشيخ الصلاحية أحد أهم ثلاث شخصيات حكمت القدس، وجمع أحيانًا مع المشيخة وظيفة قاضي القضاة، أو الخطابة، وكان يقيم يتيم أحيانًا في القاهرة، وينيب عنه أحد الشيوخ المقيمين في المدينة، فيما تمثلت باقي الوظائف الدينية في القضاء، والخطابة، والتدريس في المدرسة الصلاحية، والحسبة، وناظر البيمارستان.

مثل باقي نيابات الشام، شاركت نيابة القدس في قمع بعض حركات

التمرد، ومنها، عام 842 هـ / 1478 م، عندها شاركت قوات النيابة، قوات نيابة صفد في قمع إينال الجكمي، نائب دمشق، وألقت القبض عليه، بعد هزيمته، كما لجأت إلى تجنيد الكثير من أهل الخليل ونابلس والقدس، وخاصة البدو، لصد هجمات العثمانيين، ومنها، حينما اشتدت الخلافات بين السلطان العثماني بايزيد، والمملوكي الأشرف قايتباي، عام 889 هـ / 1485 م، وهو ما تكرر في العام ٨٩٢ هـ / 1488 م [٣٩].

من الملاحظ أن أهل فلسطين، عملوا في الجهاز الإداري، واحتلوا أهم المناصب، من نظارة الحرمين، والحسبة، والقضاء، ففي عام 796هـ، كان نائب القدس وناظر الحرمين، شهاب الدين الأمير أحمد بن اليغموري، ولما زار السلطان الناصر فرج بن برقوق المدينة، جعل النيابة لليغموري، وعيَّن الأمير ناصر الدين النشاشيبي، نظارة الحرمين[٤٠].

الحياة الاجتماعية:

كان طبيعيًا أن يحتل المماليك قمة الهرم الاجتماعي، وتولوا أعلى المناصب في الدولة، فضلاً عن بعض الفئات التي ارتبطت بهم، خاصة أصحاب الوظائف الإدارية، والمالية، والقضائية، من كتبة، وإداريين، وفقهاء، وعلماء، جاء كبار التجار، في المرتبة التالية، حيث عاشوا في ترف، وسكنوا القصور، وإن لم يسلموا من نير الضرائب، وأقام البعض منهم في أحياء، مقسمة تبعًا لنوع تجارتهم. أتى في قاعدة الهرم الاجتماعي العمال والزراع، أما العمال فقد أقاموا في أحياء، وأسواق خاصة بنوع عملهم، مثل حي القطانين في الرملة، وسوق الزياتين في

الخليل، كما انتظم العمال وأرباب الحرف في ما يشبه النقابات، لتنظيم أحوالهم، ورعاية مصالحهم. بالإضافة إلى أنه لا يُستبعد أن المهنة وُرِّثت من جيل إلى جيل.

طبق المماليك نظام الإقطاع العسكري في أنحاء، بلاد الشام، وهو موروث من الدولة الأيوبية، وتمثل في منح الأُمراء قطعة أرض زراعية، بمن عليها من فلاحين، فضلاً عن أن بعض الأُمراه منح إقطاعات نقدية، نظير خدماتهم العسكرية، لذلك سُمي " بالإ قطاع العسكري "، وكان يتغير تبعاً لوظيفة المقطع، كما تفرَّق الإقطاع في جهات عدة، حتى لا يستقل الأُمراء عن السلطة [٤١]. ولم يكن الإقطاع يورث، كما أنه لم يلغ الملكية الفردية الخاصة، أما عن علاقة الإقطاعي بالفلاحين، فلم تكن قائمة على تبادل الحقوق والواجبات، بل كان على الفلاحين أن يقدموا ثمار عملهم إلى صحاب الإقطاع، الذي رأي فيهم مصدرًا للدخل، حيث حدَّدت علاقات الإنتاج أن يدفع الفلاحون خراجًا عينيًا، سنويًا، ناهيك عن ضريبة سنوية، مقابل الإنفاق على مشروعات الصيانة، وإقامة الجسور، إلى جانب ما يدفع، مقابل البذور [٤٢]. صحيح أن الفلاح لم يعتبر قن (عبد)، لكنه عاش أحوالاً غاية في السوء، ما دفعه إلى الهرب من القرى والمزارع، والهجرة إلى المدن. فأثر ذلك على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، سلبيًا.

مع ظهور التصوُّف وانتشاره نشأ " الإقطاع الديني "، أو الأوقاف، التي تأسست في العصر المملوكي. وكانت إما بعض الأراضي الزراعية، أو بعض الممتلكات في المدن، تؤدى خدمات خاصة، أو اجتماعية

وخيرية عامة، كما أن السلطة اعتادت منح بعض مشايخ البدو إقطاعات لقاء خدمات محدَّدة، مثل الحفاظ على طرق المواصلات، والمساعدة في جلب الضرائب، وحفظ الأمن، والقضاء على حركات التمرُّد والعصيان، بالإضافة إلى المشاركة في بعض الحملات العسكرية ضد المغول، أو حكام آسيا الصغرى [٤٣].

أما أهم المنشآت الاجتماعية، فكانت الحمامات، التي كانت مقرًا لبعض الاحتفالات، ومركزًا اجتماعيًا نشطًا، كما اعُتبرت مكانًا للعلاج من بعض الأمراض. والقدس وحدها، حوت أكثر من عشرة حمامات، بعضها للنساء فحسب، ومن أشهر حمامات القدس، حمام العامود، وحمام دواد، والبطرك، وحمام الشفا، والعين.. وغيرها. ونظراً لقلة المياه في بعض المدن، فقد اهتمت السلطة بإنشاء الأسبلة (مفردها سبيل)، أي السقايات العامة، خاصة في الأماكن المزدحمة، مثل القدس، وكان السبيل يقام فوق بئر، أو نبع، ومن أهمها: سبيل قايتباي، وسبيل خان السلطان، وسبيل بركة خان في القدس [٤٤].

الحياة الثقافية:

شهد العصر المملوكي تطوراً علمياً ملحوظاً، خاصة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فقد انتشر بناء، المدارس، والمكتبات، وازداد عدد العلماء الفلسطينيين، وعُرفت كثير من المدن بأنها من مراكز العلم، مثل القدس، ونابلس، وصفد، والرملة، والخليل، كما كان ظهور بعض العائلات العلمية من أهم سمات ذلك العصر.

انقسمت مراحل التعليم إلى مرحلتين، أولاهما مرحلة التعليم العام،

للأطفال وحتى المراهقة، وثانيهما اهتمت بسن الشباب، وهي تشبه إلى حد ما، مرحلة التعليم العالي، فعرفت فلسطين الكتاتيب أو المكاتب، ومهمتها تعليم الأطفال القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن الكريم، ومن هذه الكتاتيب مكتب باب الناظر، الواقع بجوار أحد أبواب المسجد الأقصى، ومكتب المدرسة الجوهرية، التي أنشأها الأمير جوهر، عام ٨٤٤ هـ، في القدس [٤٥].

أما المدارس، فلم تكن معروفة في فلسطين، قبل العصر المملوكي، وهي أشبه بالمسجد الجامعي، والحلقات الفقهية، والمجامع الشرعية، وقد أنشأتها الدولة من أجل تثبيت ونشأة المذهب السني، وفيها يتناول الأساتذة والطلبة مرتباتهم من الأموال الموقوفة، كما كانوا يُقيمون في أماكن مخصصة لهم. أما المدرسون فكانوا من الفقهاء، والعلماء، والمحدثين[٤٦].

ومن أهم المدارس التي أُنشئت، خلال العصر المملوكي [٤٧]:

- المدرسة الدوادارية: أوقفها الأمير علم الدين سنجر، نائب دمشق، عام 695 هـ / 1295 م، على تدريس المذهب الشافعي، والحديث، وقراءة القرآن الكريم، وتقع خارج الحرم القدسي الشريف.

المدرسة الوجيهية: أنشأها وأوقفها الشيخ الإمام، وجيه الدين محمد بن عثمان التنوخي، عام ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م، وكان شيخ الحنابلة في دمشق، وتقع بالقرب من باب الغوانمة.

المدرسة الكريمية: أوقفها ناظر الخواص السلطانية، في عهد الناصر

بن قلاوون، كريم الدين عبد الكريم بن المعلم، 718 هـ / 1318 م، وهي في الجهة الشرقية من الحرم.

المدرسة التنكزية: أوقفها نائب دمشق، سيف الدين تنكز، عام 729 هـ / 1328 م، وهي بالقرب من باب السلسلة.

وغيرها من المدارس، مثل المدرسة العثمانية، التي أسستها السيدة أصفهان خاتون، عام 840هـ / 1436 م، فضلاً عن المدرسة الجوهرية، التي أسسها الأمير جوهر القنقباي الخازندار، عام ٨٤٤ هـ / 1440 م، والمدرسة الأشرفية السلطانية، التي أسسها الملك الأشرف قايتباي، عام 887 هـ / 1482 م.

أما غزة، فقد تلت القدس في المكانة العلمية والثقافية، فقد حظيت برعاية سلاطين المماليك، وأسسوا فيها الكثير من المدارس، والمساجد، تمثلت في جامع السلطان لاجين (1296 - 1298 م)، ومدرسة سنجر الجاولي، الذي تولى نيابة غزة عام 711 هـ / 1311 م، والمدرسة الكجكية، التي أسسها شاهين بن عبد الله الكجكي، في أواخر القرن الثامن الهجري، والمدرسة البردبكية، التي تأسست عام 859هـ / 1455 م، على يد بردبك الدوادار، فيما حوت نابلس مدارس عدة، منها مدرسة بن بدران، التي أسسها الحافظ بن بدران المتوفى، عام 698 هـ / 1298 م، ومدرسة القاضي فخر الدين بن فضل الله، ناظر الجيوش المملوكية، فيما أسس الملك الناصر بن قلاوون، أربع مدارس، كل مدرسة منها لمذهب من المذاهب الأربعة، في حين تأخَّر ظهور النشاط العلمي في الرملة، نظرًا لعدم استقرارها، سياسياً، حتى القرن الثامن الهجري، وبلغت أوج

ازدهارها، في القرن التاسع، أما الخليل فقد شهدت نهضة علمية، من أهم مدارسها، مدرسة السلطان حسن، والمدرسة القيمرية عند باب المسجد الإبراهيمي، فضلاً عن المدرسة الفخرية بحارة الشعابنة، في حين تركَّزت الحركة العلمية في صفد في الجامع الظاهري[٤٨].

توازى عدد المكتبات مع حجم المدارس، فلم تخلُ الأخيرة من وجود مكتبة فيها، ولكن بعض المساجد والزوايا والرباطات، أيضًا، وجد فيها مكتبات، ومن أشهرها مكتبة المدرسة الفخرية، بالقدس، التي أنشأها القاضي فخر الدين بن فضل الله، وزاد عدد مخطوطاتها الدينية والفلكية على عشرة آلاف مجلد، فيما تعد خزائن الكتب في المسجد الأقصى أهم مكتبات المساجد، فقد ضمت آلاف الكتب والمخطوطات في العلوم الدينية، وعلوم اللغة، والتاريخ، والفلك، وغيره، بالإضافة إلى مؤلفات المدرسين، الذين عملوا في المسجد الأقصى على مدى العصور، خاصة وأن الكثير من العلماء حرصوا على أن يرسلوا نسخًا من مؤلفاتهم إلى المسجد الأقصى، بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك المكتبات الخاصة، والتي امتلكها، في الغالب، العلماء والفقهاء، رغم ارتفاع ثمن الكتب، نوعًا ما، بل إن بعضهم أوقفها، ومنهم الشيخ برهان الدين بن إبراهيم بن جماعة، خطيب المسجد الأقصى، ومُدرس المدرسة الصلاحية (١٣٢٤ - ١٣٨٨)، وغيره[٤٩].

على مر العصور برع أبناء فلسطين في مختلف العلوم، وإن كان ما يهمنا هنا العصر المملوكي الذي شهد ازدياد عدد العلماء الفلسطينيين، ومن أهمهم:

علم القراءات:

ظهر أهم علمائه في القرن الثامن الهجري، وهو شمس الدين الجزري، من أبناء القدس، وله مؤلفات عدة، منها كتاب النشر في القراءات العشر، والحصن الحصين في الأدعية والأذكار، وغيرها. ومن علماء القراءات، أيضًا، ابن القباقي، المتوفى عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م، وصنَّف في القراءات أربعة عشر كتابًا [٥٠].

الأدب والنحو واللغة:

ومن علماء اللغة، في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، نجد عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي (١١٠٥ - ١١٨٦ م)، والذي عمل في ديوان الإنشاء، وأحمد بن محمد بن عبد المولى بن جبارة المقدسي (١٢٤٩ - ١٣٢٧م)، ومن مؤلفاته: " شرح الشاطبية "، و " شرح الرائية "، و " شرح ألفية بن معطي "، فيما كثر عدد العلماء، في القرن الثامن الهجري، ومنهم شباب الدين أحمد بن الحسين بن الرصاص (توفى في ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨)، وكان إمامًا، ونحويًا، ومن مؤلفاته " شرح الألفية " [٥١].

علم التاريخ:

وله نصيب بارز من اهتمام العلماء، التي تميَّزت كتاباتهم بتسجيل السير الذاتية، والتراجم والوفيات، فضلاً عن أهم الأحداث المحلية خاصة السياسية، وقد عمل أغلب المؤرخين، في دواوين الحكومة، كما كان

بعضهم من أبناء المماليك، الذين لم يمسَّهم الرِق.

ومن أهم المؤرخين الفلسطينيين [٥٢]:

عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي، المتوفى في ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م، وكان جده قد هاجر إلى دمشق، عند وقوع القدس في أيدي الفرنجة، عام ١٠٩٩م، وعاد أبو شامة إليها، عام ١٢٢٦م، وهو من أشهر المؤرخين. واهتمت مؤلفاته بتاريخ الدولة الأيوبية، ومنها كتاب: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية "، و " نزهة المقلتين "، و " مختصر
تاريخ دمشق "؛ وهناك محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي (٦٩٩ هـ / ١٣٠٠م)، من قريد مردا، قرب نابلس، ومن أهم مؤلفاته " طبقات الحنابلة "، بالإضافة إلى صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (١٢٩٦ - ١٣٦٣)، أحد علماء التاريخ، والأدب، والشعر، والنثر، في عصره. ولد في صفد، وتولى ديوان الإنشاء، في القاهرة وحلب، وجاوزت مؤلفاته المائتين، ومنها كتاب " الوافي بالوفيات "، و " نكت الهيمان في نكت العميان "، فضلاً عن أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)، وأهم مؤلفاته " إنباء الغمر بأبناء العمر "، و " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة "، وغيره.

الرياضيات:

وهي تنقسم إلى ثلاثة فروع: علم الفرائض والحساب، وعلم الجبر والمقابلة والهندسة، ويُعد أحمد بن محمد أبو العباس المقدسي، المعروف بابن الهائم، الفلسطيني الأصل، والمصري المولد من أهم العلماء الذين

أثروا تاريخ الفكر الإنساني، وهو كثير التأليف فله أكثر من خمسة وعشرين مؤلفًا، في الفقه، والفرائض، والحساب، حتى لُقب " بعيسوب الزمان وفرض العصر والأوان ". ومن أهم مؤلفاته:

" الوسيلة في الحساب "، و " المعونة في الحساب الهوائي "، وغيره، مثل شمس الدين الصفدي (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩م) [٥٣] ونبغ في الفرائض والحساب، وعمل مفتي للشافعية.

الفلك:

ومن أهم علمائه شمس الدين بن محمد بن سليمان، الشهير بابن البرهان الخليلي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م)، ومن مؤلفاته، كتاب في الفلك، وكتاب " الدائر الآفاقي "، و " قبيلة البلدان " من حساب شمس الدين الخليلي، و " عروض منازل الحج "، فضلاً عن موسى بن محمد الخليلي (٨٠٥ هـ / ١٤٠٣م)، والذي كتب " رسالة في العمل بالاسطرلاب "، القصد منها تعيين أوقات الصلاة وتحديد القبلة [٥٤].

الطب:

ظهر في فلسطين عدد قليل من الأطباء المختصين، فقد كان أغلب الأطباء تنطبق عليهم صفة الممارس العام، منهم ابراهيم بن محمد بن بهادر، المعروف بابن زقاعة الغزي (ت ٨١٠ هـ / ١٤٠٧م)، ولد في غزة، واهتم بالعلاج بالأعشاب والنباتات، فيما محمد بن سعد الله بن جماعة (٨١٩ هـ / ١٤١٦م)، برع في كثير من العلوم، وتمَّيز بكتاباته في الطب، ومنها " لمعة الأنوار في التشريح "، و " الجامع في الطب "، وهناك محمد بن أحمد المقدسي، المعروف بابن قدامة (٧٢٤ هـ /

١٣٢٣م)، الذي ألَّف كتاب " الرد على شفاء الأسقام " وهو في الصحة العامة [٥٥].

كما عرف الأطباء الفلسطينيون المرقد (النبج) واستعملوه في العمليات الجراحية، وبرعوا أيضًا، في علم التشريح، ومنهم أبو بكر بن جماعة الكنانة، (ت ٨١٩ هـ / ١٤١٦م)، الذي كان على دراية بالتشريح، حيث وصف تشريح الجمجمة، والغضروف، والدماغ، والرئة وغيرها، أما طب العيون فقد نبغ فيه علاء الدين بن طرخان الصفدي، (ت ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م)، الذي صنف كتاب " القانون في أمراض العيون "، كما اهتم، أيضًا، بالطب النبوي، فيما البعض قصر جهوده على معالجة الفقراء فحسب، مثل الطبيب يوسف أبو الفضائل الصفدي، (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م)، ويوسف بن عبد الهادي بن المبرد، (٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م)، وألَّف كتابًا في طب الفقراء [٥٦].

شهد العصر المملوكي، أيضًا ظهور كثير من العائلات العلمية، التي تنافست فيما بينها على الزعامة العلمية، ليتسنى لهم الوصول إلى أعلى الوظائف الدينية مثل القضاء، والخطابة، ومن هذه الأسر، بني قدامة، والقلقشندي، والحنبلي، وغيرهم، كما أن المرأة لم تكن بعيدة عن الحياة العلمية، خاصة في علوم القرآن، وبالذات في رواية الحديث، ومنهم آمنة بنت العلامة تقي الدين إسماعيل القرقشندي، (٨٠٩ هـ)، وعائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن قدامة (٨١٦ هـ) وأخذ عنها الحديث الحافظ بن حجر [٥٧].

هنا، انتهى تاريخ فلسطين في العصر المملوكي، وبدأ عصر جديد،

أسهمت فيه فلسطين اقتصاديًا وحضارياً، وتأثَّرت هي بأحواله السياسية، وهذا يحتاج إلى دراسة أُخرى.

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل السابع عشر

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩١، ص ١٠٩.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ١٢٩ - ١٣٢.

(٣) عبد العظيم رمضان، **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٤) عاشور، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٢.

(٥) محمد حسين محاسنة وآخرون، **دراسات في التاريخ الإسلامي**، دار الأمل للنشر، إربد، ١٩٩٠، ص ١٢٧ - ١٣٧.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٧) عاشور، **مصدر سبق ذكره** ص ١٩٥.

(٨) **نظرات على انتصارات العسكرية الوطنية المصرية**، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٩٣، (انظر: محمد فيصل عبد المنعم، جيش مصر يحقق نصرًا خالدًا على التتار)، ص ٨٠ - ٨٤.

(٩) محمد بن إياس الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الأول، الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣٠٦.

(١٠) محاسنة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٦.

(١١) رمضان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢٦.

(١٢) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، (بيروت، ١٩٩٠، انظر: سهيل زكار، فلسطين في عهد المماليك، ص ٥٤٦ - ٥٤٧.

(١٣) جمال الدين الشيال، **تاريخ مصر الإسلامية**، ج٢، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٥٦.

(١٤) بيبرس المنصوري، **التحفية المملوكية في الدولة التركية**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية - اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٥٣.

(١٥) بن بطوطة، **تحفة النُظّار في غرائب الأمصار**، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٨١.

(١٦) علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٩٤.

(١٧) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٨ - ٥٥٩).

(١٨) فادي إياس توا، **المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك**، د. ن، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٠.
(١٩) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥.
(٢٠) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٩).
(٢١) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٦.
(٢٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٩).
(٢٣) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٩ - ٢٠٠.
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
(٢٥) الموسوعة **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٨٥ - ٥٩٠).
(٢٦) فيليب حتى، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة كمال اليازجي، ج٢، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٩، ص ٢٧٨.
(٢٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: ذكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٩٨ - ٥٩٩).
(٢٨) لمزيد من التفاصيل: السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٩٨ - ٥٩٩.
(٢٩) الياس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٦ - ٢٢٢.
(٣٠) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٣ - ٢٢٧.
(*) النيابة، في العرف المملوكي العام، تعني المملكة الصغيرة، وأتت كلمة " نيابة " من أن على رأس كل مملكة نائب عن السلطان المملوكي.
(٣١) غبرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بولس راويس، دار العرب البستاني، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٥.
(٣٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٦٠ - ٥٦٥.
(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٥٦٤ - ٥٦٥.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٥٦٦.
(٣٥) الظاهري، **مصدر سبق ذكره**، ٤٣.
(٣٦) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: ذكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧٣).
(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ٥٧٤ - ٥٧٥.
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ٥٨٠ - ٥٨١.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ٥٨٤ - ٥٨٥.
(٤٠) عمر الصالح البرغوثي، **تاريخ فلسطين**، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٣، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.
(٤١) قاسم عبده قاسم، **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٠.
(٤٢) محمود إسماعيل، الإقطاع في العالم الإسلامي من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجري بين الجدل النظري والواقع التاريخي، **حوليات كلية الآداب**

(الكويت)، جماعة الكويت، الحولية، الحادية عشرة، ١٩٩٠، ص ٥٥.

(٤٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧٠).

(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ٦٠٣ - ٦٠٤.

(٤٥) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٦ - ١٥٩.

(٤٦) فيليب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٤.

(٤٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦١٠ - ٦١١).

(٤٨) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: كامل العسلي، التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث، ص ١٤ - ١٦.

(٤٩) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: كامل العسلي، المكتبات في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى عام ١٩٨٥، ص ٢٨٥).

(٥٠) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٨.

(٥١) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: عفيف عبد الرحمن، علم اللغة في فلسطين، ص ٤٢٨).

(٥٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: محمد عيسى صالحية، التاريخ والمؤرخون في فلسطين، ص ٣٢٠ - ٣٢٩).

(٥٣) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٨.

(٥٤) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: محمد عيسى صالحية، علم الفلك والميقات والعلوم الأخرى في فلسطين، ص ٣٨٠ - ٣٨١).

(٥٥) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: محمد عيسى صالحية، الطب والأطباء في فلسطين،
ص ٣٩٤ - ٣٩٥).

(٥٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٩٤ - ٣٩٦.

(٥٧) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٦ - ١٢٧.

* * *

obeikandl.com